

الغُجرية التي باعت المطر

حمادة حامد محمود نور الدين

في صيفٍ لا يمطر، ظهرت في سوق الجمعة عجوزٌ غجرية تبيع المطر في قوارير صغيرة.

كانت تجلس على الأرض أمامها بسطة من ثلاثة صفوف من القوارير الزجاجية، كل قارورة فيها غيمةٌ صغيرة تتحرك، فعلًا تتحرك، وورقة مطوية مربوطة برقبة الزجاجة. وكان سعر القارورة عشرين جنيهًا، وتحتها لافتة كرتون بخطٍّ أزرق: «المطر يأتي لمن ينتظره.»

كان ذلك الصيف أقسى صيفٍ مرّ على البلد منذ سنوات: النيل يخفض جناحيه، والأرض تتشقق في الوجه البحري، والناس تتحدث في الميكروباصات عن سحبٍ تتجمّع ثم تنصرف كأنها لا تعرف الطريق. وفي هذا الصيف، كانت قوارير العجوز أغرب بضاعة عرضها سوق الجمعة منذ عمره.

سمع كريم نبيل بالحكاية في المكتب، وكان صحفيًا شابًا يتغذّى على كشف الدجالين، رفع اسمه تحقيقه عن بائع مياه «مباركة» يبيعها بألف جنيه اللتر، وتحقيقه عن مشعوذة المحطة التي تقرأ المستقبل في تذاكر القطار. قال لمحرر الفيديو: «ادِني يومين

وهجيبلك أشطر دجّالة في السوق.» ونزل الجمعة التالية بالكاميرا المخفية.

وقف يراقبها ساعة. باعت أربع قوارير: لشابٍّ محل أبيه على وشك الإقفال، ولمعلّمةٍ تنتظر نتيجة مسابقة، ولرجلٍ جاء يمشي الهوينا كأنه لا يشتري شيئًا ثم دفع وانصرف. امرأةٌ فتحت قارورتها أمامه، قرأت الورقة، وانفجرت تبكي وتضحك وتقول: «قالك هترجعي تسمعي صوته تاني... أخويا مسافر من تسع سنين!» ولم يفتح كريم فمه. وفي طريقه إلى البيت، رنّ هاتفه: الخبر الأول. سقطت أمطارٌ غزيرة على حي العجوز نفسه، ولم تمطر بقية القاهرة.

في الجمعة الثانية اشترى كريم قارورة. مدّت له العجوز يدها الموشومة بنجمةٍ زرقاء وقالت: «اختار بقلبك مش بعينك.» فاختار قارورةً عشوائيًا، ودفع العشرين، وقال لها في تحدٍّ: «ولو المطر ما جاش؟»

نظرت إليه نظرةً عرفت بها كل شيء عنه، وقالت: «المطر ما بيتأخرش يا ابني... اللي بيتأخر إحنا.»

وحاول كريم في طريق العودة أن يجد التفسير الذي يريحه: مواعظ عامة تنطبق على أي حد، غيمة صناعية محبوسة في زجاجة، صدفة أمطار يسجلها مركز الأرصاد ويعرفها الناس. لكن عينيه ظلّتا ترجعان إلى القارورة، والغيمة الصغيرة بداخلها تدور دورةً بطيئة، كأنها تنتظره هو شخصيًا أن يفتح.

وفتح كريم القارورة في شقته، وسكب الغيمة في كوب ماء، وقرأ الورقة، فبردت أطرافه:

«هتفقد اللي بتحبه قبل ما تودّعه.»

ضحك ضحكةً مكسورة. أمه في المستشفى منذ شهر، والدكاترة قالوا كلامهم، وهو لم يزرها منذ تسعة أيام، يؤجل كل يوم: مشغول، تحقيق مهم، بكرة. مزّق الورقة ورماها، وقال للمرآة: «دجّالة.» لكنه لم ينم تلك الليلة، وفي السادسة صباحًا وجد نفسه راكبًا أول عربية إلى المستشفى.

وجد أمه في غيبوبة، والممرضة تقول: «حالتها اتدهورت من بليل. الحمد لله إنك جيت... عشان تتفقوا على الخطوة الجاية.» الخطوة

الجاية. التوقيع. قرارٌ لا يعرف ابنٌ كيف يحمله.

كانت أمه قد ربّته وحدها بعدما مضى أبوه في طريقه الأول، باعت عقدها لتدفع مصاريف مدرسته، وعملت خيّاطة حتى ضعفت عيناها. وحين كبر واشتغل، صار يزورها أقل، ويتصل أقل، ويقول لنفسه إن الحب لا يحتاج كلامًا. والحقيقة التي لم يقلها لأحد: كان يخاف من وجهها كلما كبر... يخاف أن يرى فيه اقتراب الفراق، فيهرب منه بالانشغال.

جلس كريم بجوارها ثلاثة أيام. مسك يدها، وحكى لها عن شغله، وعن أول مقال كتبه، وعن أنه كان خايف يقولها «بحبك يا ماما» طول عمره لأنه استحى. وفي الليلة الثالثة، قالت الممرضة إن النبض يهبط، فانحنى على أذن أمه وقالها أخيرًا: «بحبك يا ماما... ومتزعليش مني إني اتأخرت.»

وتوفّت الأم وهي تسمعه. والدكتور قال له بعدها: «حصل حاجة غريبة يا أستاذ كريم... مؤشراتها اتحسّنت آخر يومين، كأنها كانت مستنية حد ييجي.»

وفي طريق عودته في الفجر، فتح كريم شباك العربية، فوجد القاهرة كلها تُغسل بمطرٍ لم ترَ مثله منذ سنوات، والناس واقفة في الشرفات تتفرج على السماء. وتذكّر ورقة القارورة: لم تقل «هتموت اللي بتحبها»... قالت «هتفقدها قبل ما تودّعها». العجوز لم تكن تبيع نبوءة. كانت تبيع له آخر ثلاثة أيام مع أمه.

وأمضى ليلته يعيد ترتيب الدنيا: المطر الذي لا يخطئ البيوت، والورقة التي قرأت ما لم يقله لأحد، والعجوز التي عرفته قبل أن تعرفه. وقرر قرارين: أولهما أن التحقيق الذي جاء من أجله مات في المستشفى، وثانيهما أنه سيجد هذه المرأة ولو قلب السوق بسطةً بسطة.

رجع إلى سوق الجمعة وهو يجري، والكاميرا المخفية في جيبه منسية. لم يجد البسطة. سأل بائع الطواقي المجاور، فقال: «الغجرية؟ مشيت. كل جمعة بتلاقيها هنا، والجمعة دي ماجتش.»

بحث عنها أسبوعين. سأل بائع السكاكين فأرسله إلى بائع الحمام، وبائع الحمام أرسله إلى عرابي الفرافرة في آخر السوق، وعرابي الفرافرة قال له وهو يقلّب فراخه: «الغجرية دي يا ابني بتظهر للي

محتاجها... انت شكلك احتجتها وخلصت.» لكن كريم لم يقتنع؛ فالصحفي لا يقبل الإجابات التي تشبه الشعر. وفي النهاية وجدها في مقهى صغير خلف السوق، تشرب شايًا بلبن وتقرأ كفّ نادلةٍ شابة مجانًا. جلس أمامها بلا مقدمات، ووضع على الطربيزة ورقة نبوءته ممزّقة، وأخذ يلمّ أجزاءها بأصابعه كمن يجمع اعتذارًا.

قال: «أنا جيت أعرف... إزاي عرفتي؟»

نظرت إليه طويلًا، وقالت: «أنا ما ببيعش مطر يا ابني. أنا ببيع للناس اللي هم مستنيينه أصلًا وخايفين يعترفوا. الست اللي افتكرت أخوها؟ كان هيّاج يتصل بكرة، والورقة بس حرّكتها. وأنت؟ أنت كنت عارف إن أمك بتموت... محتاج حد يقولك: روح النهارده.»

«والمطر؟» ابتسمت العجوز ابتسامةً عريضة: «المطر بيحب اللي بيستناه بجد.»

وسألها سؤالًا أخيرًا قبل أن تقوم: «طيب القوارير نفسها... الغيمة اللي جواها بتتحرك إزاي؟»

ضحكت العجوز حتى ظهرت أسنانها الثلاثة الباقية، وقالت وهي تلمّ شالها على كتفها: «دي أسرار شغل يا ابني... وانت أول واحد تسألها من غير ما يدفع عشرين جنيه.» ومشت في زحمة السوق، وانحنت ظلال الناس عليها، وغابت.

كتب كريم تحقيقًا، لكنه لم يكتب تحقيق الفضيحة الذي وعد به محرّره. كتب قصتها كما هي، بعنوان: «الغُجرية التي باعت المطر». وقرأه الناس، ونزلت السوق جمعةً وراء جمعة يبحثون عن البسطة. لم تظهر أبدًا.

ووصلت كريم رسائل من قرّاء لا يعرفهم: أبٌ كتب أنه عزم ابنه على الغداء بعد قراءة التحقيق، وأمٌّ كتبت أنها اتصلت بابنتها المسافرة في نفس الليلة، ورجلٌ كتب سطرًا واحدًا: «كنت هأجّل زيارة أبويا للأسبوع الجاي... رحتله النهارده. شكرًا للغجرية.»

لكن كل صيفٍ بعدها، يقول الناس في سوقٍ جديدٍ من أسواق المحافظات، تظهر عجوزٌ غجرية موشومة بنجمةٍ زرقاء، تبيع قوارير صغيرة فيها غيوم تتحرك... وتمطر البلدة التي تقف فيها، مهما طال الصيف.

تمّت

— النهاية —

حمادة حامد محمود نور الدين

https://dakkan-alhikayat.netlify.app